اشتهرت به من عدم الإسراف والتبزير، وميلها الطبيعى إلى الأثواب البسيطة لكونها تكره الأزياء المضرة بالصحة.

وبالإجمال إن شريف خلال جلالتها يقوم واعظًا ونزيرًا فى نساء العالم عمومًا وأميرات الشرق خصوصًا، فيرد المتكبرات المتعظمات منهن إلى الضعة واللين والواهنات القوى إلى النشاط والإقدام والمسرفات (بلا فائدة على الوطن والجنس) إلى الاقتصاد والتوفير والمبتعدات عن عمل البر والإحسان إلى حبه والعمل به، فهكذا تكون النساءالعظيمات والملكات الفاضلات والأميرات الجليلات، لا بقصور تحلت بالمفاخر وخدور ترصعت بالجواهر، أطال الله بقاء جلالتها على ما هى عليه من الميل الغريزى لنفع الإنسان وفعل الإحسان ورفع لواء الجنس النسائى الذى يتشرف عند سماعه صفاتها الحميدة ومحامدها العظيمة كما يفتخر بسامى لطفها وعظيم فضلها، وحق له أن يفتخر ويمتجد، وهى المليكة فى دولة الجمال والسلطانة على عرش الفضل والكمال والمركز الذى ينتهى إليه خطوط التمدن والآداب. وسنعود إن شاء الله بعددٍ آخر إلى تاريخ حياة هذه الإمبراطورة المعظمة بأكثر إيضاح تذكرة لأميراتٍ وعظيماتٍ يسترن الوجه بأكمام الخجل إذا قيل أن الفضل بمحاسن العمل.

مصر وبغداد وقرطبه وأوربا

«تابع ما قبل»

يا من يباهى ببغداد ودجلتها مصر مقدمة والشرح للنيلِ

بغداد هى دار السلام ومقام الخلافة العباسية كانت كما رواه الخطيب البغدادى فى تاريخه المشهور مشتملة على مدن وأمصار متلاصقة متقاربة تتجاوز الأربعين، وقد استمرت نحو ٥٠٠سنة دارًا للخلفاء العباسيين ومعدنًا للعلم ومقامًا للعلماء والشعراء

والفقهاء ومشاهير الرجال وأرباب الصنائع والفنون ثم خربت بفتنة التتار، بعد أن بلغت من الارتقاء شأوا الكمال حيث كان فيها بعهد المأمون بن الرشيد ٦٥ألف حمام.

وقال غيره من المؤرخين أن بغداد كانت تشتمل فى آخر عصر من ارتقائها على ٣٠ألفًا من قصور وصروح الخلفاء والأمراء والأغنياء، وثمانية جسور (كبارى) رخامية ممتدة فوق نهر الدجلة و١٢ألف طاحون و٨٤٠مسجدًا و٣٠٠جامع و٨٠٠مدرسة و١٢ألف مكتب و١٠آلاف خان و١٤٠٠سوق للأقمشة، وكان محيط دائرتها مسافة يومين وكان لها سور مساحة دائرته ٢٤ميلاً بعرض كاف لركوب عشرة فوارس جنبًا لجنب يحيطه ٣٢٠حصانًا لها ١٠أبواب على ضفاف الدجلة، وكل باب منها قلعة حصينة للغاية.

أما أحكامها فى أيام الرشيد والمأمون، فحدث عن عدلها وحلمه ما شئت، وعن جود البرامكة وكرمهم ما استطعت، وإذا مررت بالرصافة أطرق كرى فإن النعامة فى القرى، وقل بحكمائها وعلمائها وشعرائها وأبطالها وفرسانها كل الصيد فى جوف القرا.

وكم من بدوية بين الرصافة والجسر كسفت الشمس بنورها، وأخجلت البدر بجمالها والله در من قال:

استودع الله فى بغداد لى قمرًا ... بالكرخ من فلك الأزرار مطلعهُ

أو

عيون المهى بين الرصافة والجسر ... جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى

- قرطبة -

أما قرطبة فكانت عاصمة السلطنة العربية فى الأندلس تحتوى على أكثر من مائتى ألف منزل يسكنها أكثر من مليون نسمة، ولها شارع واحد مستقيم طوله ١٠أميال وعرضه ١٠أمتار مزدانًا بعداد من مصابيح تنار على نفقة الحكومة، ويمشى فيها الأهلون طول الليل تحت جناح العدل ولواء الأمن براحة واطمئنان وسرور ووئام، وبعد ٣٠٠سنة من هذا الزمن لم يك فى لوندن مصباح واحدٌ يضيءُ فى شوارعها العمومية على نفقة الحكومة، وكانت شوارع قرطبة عمومًا مبلطة تبليطًا حسنًا، وبعد ذلك بأجيالٍ عديدة كان يمشى المارة فى شوارع باريس غائصين فى بحار من الأوحال حتى أكارعهم.

وكانت قصور ملوك ألمانيا وفرنسا والنمسا وإنكلترة حقيرة لا تشبه مرابط الخيل التى شادها الأندلسيون فى الرصافة والزهراء هندسةً وبناءَ.

والأغرب من ذلك أن سرايات ملوك الإفرنجة كانت حينئذٍ بلا نوافذ، ولها مواقد للاصطلاء بدون مداخن، فكنت ترى الدخان يخرج من ثقب السقف كأكواخ أحقر حقير فى الهند أو أفقر فقير فى الشرق، بالوقت الذى كان لزوجة عبدالرحمن الناصر سلطان الأندلس قصر فى الزهراء الكائنة عى بعد ٣أميال من قرطبة قائمًا على أكثر من ١٢٠٠عمود مرمرى وقاعاته الاستقبالية مزدانة بالذهب واللؤلؤ، وفيه من الخدم والمماليك والخصيان والخادمات ٦٣٠ نفس يحرسه ١٢ ألف فارس من الحرس الملوكى برماح ومناطق وخوذ مذهبة، وكان حول هذا القصر العامر بستان فسيح وفيه من كل فاكهة زوجان، وله حوض كبير للأسماك وساحات مخصوصة للحيوانات والوحوش والطيور على اختلافها فى الجنس والشكل والرسم، وقد صرف على بناء هذا القصر وجناته ٢٥سنة و٢٨ مليونًا من الدنانير.

وكان فى قرطبة خزانة كتب اعتنى بجمعها الناصر والمنتصر، تشتمل على أكثر من ٦٠٠ألف مجلد وديوان للعلوم عمومًا، ومدرسة للطب فضلاً عن المكاتب السلطانية والمراصد الفلكية حيث كان أبطال الأمة البريطانية لا تفتخر إلا بوشم أجسامهم بالرسوم المختلفة الصور، وكان الأوربيين بعد قرون عديدة بسطوة برابرة الشمال قد نسوا خطوط أوربا الجغرافية، وبات الواحد منهم لا يعلم من الكون إلاَّ وطنه، وكان الذى يكتب ويقرأ منهم يعد بينهم على الأصابع، كما يعد الآن الأميون بين ظهرانيهم.

وكانت الصنائع فى قرطبة زاهية رائجة، لا سيما المنسوجات الحريرية والقطنية والكتانية وغيرهامن شغل النول والمكوك فضلاً، عن الحلى والمجوهرات والملابس المجركشة الذهبية التى كانت الأميرات ونساء الخاصة يفتخرن بها، وهى على غاية من النظافة واللياقة، خلافًا لنساء الإفرنج اللواتى كن وقتئذٍ كنساء الغجر لا يغيرن ثيابهن حتى تصير رثة وعليها تلال من الأوساخ.

وفى قرطبة كثير من الجداول العذبة تجرى فى جناتها بين أشجارٍ غضة وأزهار فيحاء، يتخللها مماش للرياضة وكراسى حجرية مرمرية للراحة، وكان مهندسو هاتيك الجنات الغناء لا يمكنون العين من التلذذ وحدها بجمال تلك المناظر البديعة بل يسهلون لحاسة الشم طرق الاشتراك معها بطيب ما يفوح من أكمام الزنابق والرياحين والأزهار التى كانوا يزرعونها على طرز بديع بين الرياض والأشجار.

وكان العرب سكان بغداد وقرطبة يستدعون أشهر الأطباء والجراحين، وأنجع الأدوية لعليلهم بينما كان الإفرنج لا يلتفتون إلاَّ إلى تسفير المريض إلى أقرب مزار، فيطرحونه أمامه وينتظرون شفاءه بقوة المعجزات لا بفعل الدواء ورأى الأطباء، وكان علماء الرومان فى ذلك الزمان يقولون إن الأرض مسطحة بالوقت الذى كان علماء الجغرافية فى قرطبة يرسمون لها الرسوم الكروية، ويعلمون الطلبة فى مدارسهم العالية هذه المبادئ الفلسفية.

وقد اقتدى بعدئذٍ أمراء فرنسا وألمانيا وانكلترة بذوق وشهامة ومروءة ولطف وآداب الهيئة العربية الأندلسية، وتعلموا منهم علم الفروسية (ركوب الخيل)، وصاروا يتفاخرون به افتخار العرب به ثم أخذوا عن العرب الصيد بالنبال والحراب وتربية صافنات الأفراس، واقتبسوا منهم معزة النفس وحب الشرف والحرية والعفاف والعهدوالوفاء والافتخار إلى غير ذلك من المزايا والصفات الأدبية، سواءً كانت بكتاباتهم وأشعارهم أو بعوائدهم وتقليداتهم حيث كانت الهيئة الاجتماعية العربية غاية باللطف والآداب، لا سيما فى أسبانيا التى أخذ منها الألمانيون فن الأغانى والروايات ونشروهما فى بلادهم مدةً حتى امتد منها إلى إيطاليا وصقلية، وهذا كان أساسًا فى أوربا للتآليف الفكاهية وأصلا للآداب العمومية.

وكانت مدرسة الموسيقى فى قرطبة عامرة على نفقة الحكومة بغاية الإتقان والنظام، وقد خرج منها كثير من المعلمين الماهرين بهذا الفن اللطيف، كما كانت مراتب العلم فى الرصافة والزهراء لا سيما فى زمن الناصر محفوظة لمستحقيها بدون التفات إلى اختلافهم فى الجنس والمذهب، فكان ناظر المدرسة العلمية إسرائيلياً، كما كان فى بغداد أيام هارون الرشيد رئيس المدرسة الكلية مسيحيًا - اسمه يوحنا موسى - وهكذا فى وقتنا الحاضر، فالممالك الأكثر تمدنا إلى عرف حكامها وشعوبها واجباتهم لا تعطى القوس إلاَّ لباريها والوظائف لغير مستحقيها، ولا غرو فإن الحقائق تعرف بالرجال نصراء العدل الذين لا يهمهم الالتفات إلى مراعاة الخواطر بتقليد الوظائف لغير أربابها وتحويلها لغير أصحابها، ممن يجعلون مصالحهم مورداً لمنافعهم الخصوصية لا للمنافع العمومية، أعنى بهم أولئك الذين شادوا بسببها القصور، وأسبلوا على الخدور براقع الستور ثم اعتزلوا الأشغال وباتوا فى دورهم يتنعمون بمالهم وثروتهم تبذيراً وإسرافًا على مقتضيات الترف ثم يغمضون الجفن بخلاً وضنًا على كتاب يشترونه أو جريدة يشتركون بها، وإن اشتركوا وقبلوا بعض أعدادها

يردونها يوم يأتيهم الجابى مطالبًا ببدل الاشتراك، وكفى بذلك تذكرة لقوم يفقهون.

(عودٌ) وقد ألف علماء العرب فى أسبانيا كثيرًا من المؤلفات العلمية والأدبية والتجارية والصناعية والزراعية، ولم يتركوا علمًا واحدًا من العلوم الرياضية والفلكية والتاريخية والجوغرافية والهندسية والطبية والكيمياوية والتشريحية إلاَّ وكتبوا بها المجلدات الضخمة، فضلاً عن تآليفهم العديدة فى تربية الخيول والمواشى والنبات والرى وهم الذين أدخلوا إلى البلاد الإسبانية الحرير والقطن والأرز والسكر وزراعة الأشجار المثمرة ومصنوعات الخرق والحديد والبولاد والدباغة والبارود والمدافع وبيت الأبره والحساب العشرى ومعرفة التقطير والتخمير إلى غير ذلك من الكتب المفيدة لهيئاتهم الاجتماعية، وأباحوا تعليم النساء ما يخترن من العلوم والمعارف بالوقت الذى كان الإفرنج يمنعونها عن النساء منعًا قطعيًا، حالة كون العرب فى سوق عكاظ قد خصصوا لهنَّ مكانًا للمناظرة، فكن يأتين إليه ويتقارعن وهن فى هوادجهن بنظم الأشعار وإلقائها على مسمع من سادات العرب وملوكهم وعلمائهم، وكان النابغة الذبيانى ينصف بينهن ويحكم بأفضلية بعضهن عن البعض الآخر، كما كان يحكم بين شعراء الرجال أيضًا.

وقد اشتهر فى نساء العرب بالشعر كثيرات، وفى مقدمتهن تماضر الخنساء وعايشة الباعونية وليلى بنت حزيفه وليلى العفيفية بنت مرة وعابدة المدنية والعروطية وعلية المشرق وولادة المغرب وزينة المرية وحمده بنت زياد شاعرة الأندلس، وأختها زينب ومهجة الغرناطية وعايشة القرطبية ومريم بنت يعقوب الأنصارى وأم الهنا وصفصفه الركونية التى قالت:

أغار عليكِ من غيرى ومنى ... ومنك ومن مكانك والزمان

ولو أنى خبأتك فى عيونى ... إلى يوم القيامة ما كفانى